د. عبد الناصر سلامة
باحث دراسات إسلامية

# نحو اغتنام أمثل لشهر رمضان

اقتضت حكمة الله سبحانه وتعالى أن يفاضل بين الأوقات، ويرفع بعضها فوق بعض درجات[1]، ومثال ذلك تفضيله تعالى ليوم الجمعة على سائر الأيام، وتخصيصه دونها بأحداث عظيمة جسام، كما في الحديث الصحيح: «خير يوم طلعت عليه الشمس يوم الجمعة، فيه خلق آدم، وفيه أدخل الجنة، وفيه أخرج منها، ولا تقوم الساعة إلا في يوم الجمعة»[2]، ومن ذلك أيضا تفضيله تعالى شهر رمضان على سائر الشهور، حيث جعله شاهدا على حدث عظيم، وهو نزول القرآن الكريم، كما في قوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ﴾ (سورة البقرة: ١٨٥).

ولاشك أن فضل الأوقات لا يتعلق بما يقع فيها من الأحداث العظام فحسب، بل أيضا بما يودع الكريم سبحانه وتعالى فيها من الفضائل والخيرات، والتي تجعل من يغتنمها ويحرص عليها يتبوأ أرفع المقامات وأسمى الدرجات، كما تجعل - في المقابل- من يغفل عنها من أكبر المغبونين، وأشد المحرومين، ولا أدل على ذلك من حديث رسول الله ﷺ وهو يصف من حرم الغفران في رمضان بقوله: (.. ورغم أنف رجل دخل عليه رمضان فانسلخ قبل أن يغفر له)[3].

فشأن العاقل إذا أن يحرص حرصا شديدا على اغتنام هذه الأوقات الفاضلة، التي هي بمثابة الصفقات التجارية المربحة التي يجني من ورائها التاجر الذكي أموالا طائلة،

تعوضه عما فات، وتغنيه فيما هو قادم وآت. ومن ذلك شهر رمضان، الذي خصه الله بليلة هي خير من ألف شهر، من حرم خيرها فقد حرم[1].

ومن هذا الباب والمنطلق المذكور رأينا أن نستعرض في هذا المقال بعض الخطوات والإجراءات القلبية والعملية التي يحسن بالمؤمن اتباعها إذا أراد أن يغتنم هذا الشهر الفضيل، وينال ما فيه من الخير والعطاء الجزيل.

ولنبدأ أولا بالإجراءات القلبية، فنذكر منها:

**١- الفرح والسرور والابتهاج بقدوم ضيف الرحمن:**

فأول ما يلزم المؤمن نحو رمضان هو أن يظهر السرور والفرح بقدومه، لأن هذه الصفة القلبية تدل على تعظيم المؤمن لهذا الشهر الكريم، الذي هو أحد الشعائر الزمنية المأمور بتعظيمها، شأنه في ذلك شأن الأشهر الأربعة الحرم، وقد ورد الأمر بتعظيم شعائر الله عموما في قوله تعالى في سورة الحج: ﴿وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾ (الحج:٣٢). ولا شك أن استبطان هذا الشعور الطيب نحو هذا الشهر الفضيل من مظاهر الصدق في التعظيم، كما أنه من أعظم الأسباب التي يستجلب بها المؤمن توفيق الله له حتى ينهض بحقه صياما وقياما وطاعة، مصداقا لقوله تعالى: ﴿إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ﴾ (الأنفال:٧٠).

وقد كان ﷺ حريصا على تحقيق هذا المعنى في نفوس الصحابة رضي الله عنهم كلما حضرهم رمضان، فعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ يبشر أصحابه: «قد جاءكم رمضان، شهر مبارك، افترض الله عليكم صيامه، تفتح فيه أبواب الجنة، وتغلق فيه أبواب الجحيم، وتغل فيه الشياطين، فيه ليلة خير من ألف شهر، من حرم خيرها فقد حرم»[2]. ومحل الشاهد في الحديث قول أبي هريرة أن رسول الله ﷺ كان: (يبشر أصحابه). ومعلوم ما للتبشير من ارتباط بالفرح والسرور والابتهاج.

**٢- صيام رمضان وقيامه إيمانا واحتسابا:**

ومن الصفات القلبية التي تلزم المؤمن تجاه رمضان أن يصومه إيمانا واحتسابا، وهو ما أرشد إليه النبي ﷺ في الحديث الصحيح بقوله: «من صام رمضان، إيمانا واحتسابا، غفر له ما تقدم من ذنبه، ومن قام رمضان إيمانا واحتسابا، غفر له ما تقدم من ذنبه»[3]. وفي رواية قال: «خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه»[4]. قال ابن بطال (ت ٤٤٩ هـ): «ومعنى قوله: إيمانا واحتسابا، يعني: مصدقا بفرض صيامه، ومصدقا بالثواب على قيامه وصيامه، ومحتسبا مريدا بذلك وجه الله، بريئا من الرياء والسمعة، راجيا عليه ثوابه»[5]، وذكر الخطابي (ت:٣٨٨ هـ) معنى آخر فقال: «احتسابا، أي: عزيمة، وهو أن يصومه على معنى الرغبة في ثوابه، طيبة نفسه بذلك، غير مستثقل لصيامه، ولا مستطيل لأيامه»[6]. وهذه من المعاني القلبية الجليلة التي يجدر بالمؤمن الاعتناء بها حتى لا يفوته ما رتبه الله على الصيام والقيام من ثواب، وليعلم أنه على قدر ما يحصل من هذه المعاني في القلب يكون حظه من الأجر، وقد قدمنا آنفا قوله تعالى: ﴿إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ﴾ (سورة الأنفال:٧٠). وكم من نائل بمراقبته لأحوال قلبه في مثل هذه المعاني المذكورة فضلا وأجرا لا يحصل بعضه من هو مهمل لها مع كثرة عبادته وتنسكه، ولهذا جاء عن أبي الدرداء رضي الله عنه قوله: «لذرة من ذوي يقين وتقوى أفضل وأرجح من أمثال الجبال عبادة من المغترين»[7].

**٣- الصدق في التوبة إلى الله تعالى والرجوع إليه:**

ومن الصفات القلبية التي يجب على المؤمن أن يحرص عليها خلال شهر رمضان أن يصدق فيه التوبة إلى الله تعالى والرجوع إليه، وسبب التنبيه على هذا المعنى أننا نرى فئات عريضة من المسلمين تقبل في هذا الشهر على الله تعالى بألوان الطاعة، وتجدد العهد به، ويكتابه، وببيوته، مع الإقلاع عن كثير من المحرمات والفواحش، لكن ما أن ينقضي الشهر حتى تعود طائفة منهم إلى ما كانت عليه من العصيان والهجران، هادمة ما بنته، وناقضة ما غزلته، ولعل السبب في ذلك راجع إلى عدم الصدق في

التوبة إلى الله؛ إذ لو صدق العبد ربه التوبة لصدقه الله وأعانه، وهذا من المعاني التي يوحي بها قوله تعالى في الآية المتقدم ذكرها: ﴿إِن يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا﴾ (سورة الأنفال: ٧٠)، فليتأمل ذلك.

وإن من علامات صدق التوبة في رمضان أن يبادر بها المؤمن في رجب أو شعبان، وهو كما قال بعض السلف: رجب شهر الغرس، وشعبان شهر السقي، ورمضان شهر جني الثمار. فمن أراد جني الثمار في رمضان؛ فلابد أن يغرس في رجب ويسقي ذلك الغرس في شعبان[١١]، وهو كما قيل أيضا: رجب شهر التوبة، وشعبان شهر المحبة، ورمضان شهر القربة.[١٢] ولعل هذه المعاني مستمدة من قوله ﷺ: «اللهم بارك لنا في رجب وشعبان، وبارك لنا في رمضان»[١٣].

وأما الإجراءات العملية، فنذكر منها:

**٤- حسن الصيام؛ بصونه عن مفارقة الجوارح للآثام:**

وهذه من أهم الإجراءات العملية التي يجب العناية بها، وذلك أن الله تعالى ميز شهر رمضان بعبادة الصيام وخصه بها دون سائر الشهور، فمن ضيع الصيام فقد ضيع رمضان، قال تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ (سورة البقرة: ١٨٥)، وقال على لسان النبي ﷺ: «قد جاءكم رمضان، شهر مبارك، افترض الله عليكم صيامه»[١٤]، وقد جاءت نصوص كثيرة تنبه على أن المعنى الحقيقي لهذه العبادة لا يقتصر على مجرد الامتناع عن شهوتي البطن والفرج فحسب، وإنما هناك ما هو أرقى درجة، وأسمى معنى من هذا المفهوم، وهو الصيام عن مقارفة الآثام بالسمع والبصر واللسان واليد والرجل وسائر الجوارح، ويدل على هذا المعنى قوله ﷺ: «من لم يدع قول الزور والعمل به، فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه»[١٥]، وقوله ﷺ: «الصيام جنة، فلا يرفث ولا يجهل، وإن امرؤ قاتله أو شاتمه، فليقل: إني صائم مرتين»[١٦].

ولذلك جاءت بعض الأحاديث النبوية تبين أن فضل الصيام وأجره التام لا يحصل إلا بتحقيق هذا المعنى المذكور، كقوله ﷺ: «الصيام جنة، ما لم يخرقها»[١٧]، قال ابن رجب (ت: ٧٩٥ هـ): «ما لم يخرقها: يعني: بالكلام السيئ ونحوه»[١٨]، ويؤيده الرواية الأخرى: «قيل: وبم يخرقه؟ قال: بكذب، أو غيبة»[١٩].

وما أحسن ما قاله حجة الإسلام الغزالي في الإحياء، وهو يشرح حديث رسول الله ﷺ: «كم من صائم ليس له من صيامه إلا الجوع والعطش»[٢٠]، قال: «كم من صائم مفطر، وكم من مفطر صائم. والمفطر الصائم: هو الذي يحفظ جوارحه عن الآثام ويأكل ويشرب، والصائم المفطر: هو الذي يجوع ويعطش ويطلق جوارحه. ومن فهم معنى الصوم وسره، علم أن مثل من كف عن الأكل والجماع وأفطر بمخالطة الآثام، كمن مسح على عضو من أعضائه في الوضوء ثلاث مرات، فقد وافق في الظاهر العدد، إلا أنه ترك المهم، وهو الغسل، فصلاته مردودة عليه بجهله»[٢١]، فلا بد إذا من تحقيق معنى الصيام لمن أراد أن يظفر بفضائل هذا الشهر على الوجه التام.

**٥- الإكثار من تلاوة القرآن ومدارسته وتدبره:**

وهذا من أهم الأعمال التي يحرص عليها المؤمن في رمضان، فمن المعلوم أن شهر رمضان هو شهر القرآن: ففيه نزل جملة واحدة إلى بيت العزة من السماء الدنيا، وفيه بدأ نزوله إلى الأرض منجما - أي: مفرقا- حسب الوقائع والأحداث، قال تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ﴾ (سورة البقرة: ١٨٥). وقد دلت السنة النبوية وأحوال السلف الصالح أيضا على قرآنية رمضان: ففي الحديث أن ابن عباس - رضي الله عنهما- قال: «كان رسول الله ﷺ من أجود الناس، وكان أجود ما يكون في رمضان، حين يلقاه جبريل، يلقاه كل ليلة يدارسه القرآن»[٢٢]، وعن ابن شهاب الزهري أنه كان إذا دخل رمضان قال: «فإنما هو تلاوة القرآن، وإطعام الطعام»[٢٣]، ومثله ما يروى عن الإمام مالك أنه كان إذا دخل رمضان وضع صحف العلم، وأقبل على تلاوة القرآن.

فمدارسة القرآن تلاوة وتدبرا وتفهما لآياته من السنن المستحبة عموما، لقوله تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ﴾

(ص:٢٩)، لكن لا شك أن للعناية بذلك في هذا الشهر خاصة فضلا زائدا، بدليل هذه الآثار المذكورة، ويؤكد هذا المعنى أيضا وصفه تعالى للقرآن بأنه (كتاب مبارك)، وقوله ﷺ عن رمضان: «قد جاءكم رمضان، شهر مبارك»[٢١]، فيكون بهذا من اشتغل بالقرآن في رمضان قد جمع لنفسه بين بركتين: بركة الزمان، وبركة العمل. أي: جمع بين بركة رمضان وبركة القرآن، وكفى بهذا فضلا.

وإن مما يعين على تحقيق هذا المعنى أيضا أن يحافظ المؤمن على صلاة التراويح في المساجد ما أمكن له ذلك، لأنها فرصة لسماع القرآن بلسان مقرئين متقنين ذوي أصوات حسان، ولاشك أن سماع القرآن من أفواههم أوقع في النفس، وأدعى إلى الخشوع والتدبر، ولذلك جاءت نصوص السنة تحث على تزيين القرآن بالأصوات الحسان، على غرار قوله ﷺ: «زينوا القرآن بأصواتكم»[٢٢].

**٦- الإكثار من الصدقة وأفعال الخير المتعدية عموما:**

ومما ينبغي أن يحرص عليه المؤمن في رمضان أيضا ليظفر بفضله، ويسعد بأجره، أن يكثر من الصدقات وفعل الخيرات، ولا يقتصر على الصيام والقيام وتلاوة القرآن، فهذه كلها أعمال يقتصر نفعها على صاحبها، والفضل كله أن يضاف إليها النوع الثاني من الأعمال، وهي المتعدية النفع، مثل: الصدقة، وإعانة المحتاج، وإصلاح ذات البين، وصلة الرحم، وبر الوالدين، وعيادة المريض، ونحو ذلك مما يتعدى نفعه، ودليل استحباب هذا الصنيع والندب إليه حديث ابن عباس المتقدم: «أن رسول الله كان من أجود الناس، وأجود ما يكون في رمضان، حين يلقاه جبريل يدارسه القرآن، فكان رسول الله حين يلقاه جبريل، أجود من الريح المرسلة»، فكان ﷺ يجمع بين الصدقة ومدارسة القرآن، أي يجمع بين النوعين من العبادة. ومثله ما ثبت عن أبي بكر الصديق - رضي الله عنه - في حرصه على العبادات المتعدية النفع، وعدم الاقتصار على الصيام فقط، فعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ لأصحابه: «من أصبح منكم اليوم صائما؟» قال أبو بكر رضي الله عنه: أنا، قال: «فمن تبع منكم اليوم جنازة؟» قال أبو بكر: أنا، قال: «فمن أطعم منكم اليوم مسكينا؟» قال أبو بكر: أنا، قال: «فمن عاد منكم اليوم مريضا؟» قال أبو بكر: أنا، فقال رسول الله ﷺ: «ما اجتمعن في امرئ، إلا دخل الجنة»[٢٣]. وفي الأثر المتقدم عن ابن شهاب الزهري أيضا دلالة على هذا المعنى، فليرجع إليه.

فهذه مجموعة من الإجراءات والخطوات القلبية والعملية المعينة على اغتنام شهر رمضان أمثل اغتنام، فجدير بالمؤمن الصادق أن يحرص عليها ويبذل جهده للتحلي بها، ويحمل نفسه على ذلك مستعينا بالله، خاصة في تحري ليلة القدر، فإن هذه الأوقات الفاضلة إذا أتت قد لا تعود، والسعيد من اغتنمها، والمحروم من حرمها، فنسأل الله أن يجعلنا جميعا من أهل رمضان، وأن يحل علينا شآبيب الرحمة والرضوان، إنه هو الكريم المنان.

الهوامش

١- وللإمام لأبي بكر البيهقي كتاب حسن في الموضوع سماه: (فضائل الأوقات)، وهو محقق مطبوع في نحو ١٦٠ صفحة.

٢- صحيح مسلم (برقم: ٨٥٤).

٣- مسند أحمد (برقم: ٧٤٥١).

٤- ولذلك خص جماعة من العلماء شهر رمضان بالتأليف، ووضعوا في فضائله كتبا حسانا، مثل: ابن أبي الدنيا، وابن شاهين، وعبد الغني المقدسي.

٥- مسند أحمد (برقم: ٨٩٩١).

٦- صحيح البخاري (برقم: ٣٧ - ٣٨).

٧- مسند أحمد (برقم: ١٦٦٠).

٨- شرح صحيح البخاري، لابن بطال، (١/ ٩٥).

٩- فتح الباري بشرح صحيح البخاري، لابن حجر العسقلاني، (٤/ ١١٥).

١٠- إحياء علوم الدين، لأبي حامد الغزالي، (ص ٢٥٩)، دار ابن حزم، الطبعة الأولى: ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م.

١١- أسرار المحبين في رمضان، لأبي العلاء المصري، (ص ٤٨).

١٢- نزهة المجالس ومنتخب النفائس، لعبد الرحمن الصفوري، (١/ ١٦٠).

١٣- مسند أحمد (برقم: ٢٣٤٦).

١٤- تقدم تخريجه.

١٥- صحيح البخاري (برقم: ١٩٠٢).

١٦- صحيح البخاري (برقم: ١٨٩٤).

١٧- مسند أحمد (برقم: ١٦٩٠).

١٨- جامع العلوم والحكم، لابن رجب الحنبلي، (٢/ ١٣٨).

١٩- المعجم الأوسط، للطبراني، برقم: ٤٥٣٦.

٢٠- مسند أحمد (برقم: ٩٦٨٥).

٢١- إحياء علوم الدين، لأبي حامد الغزالي، (ص ٢٧٩).

٢٢- مسند أحمد (برقم: ٣٥٣٩).

٢٣- التمهيد، لابن عبد البر، (٦/ ١١١).

٢٤- تقدم تخريجه.

٢٥- مسند أحمد (برقم: ١٨٤٩٤).

٢٦- صحيح مسلم (برقم: ١٠٢٨).